حيث تدور اللعبة

قصة بقلم خضير عبد الأمير

« كانت الاشجار المطلة على الطريق دائمة الخضرة . وكنت أعجب من هذه الديمومة واتطلع في الوقت نفسه الى كثافة الفروع المتهدلة. كان احساسي بالقلق والتردد واضحا اثناء مروري الاسبوعي .

الشارع طويل يفضي الى ساحة مفتوحة الجوانب مضيئة واسعة. وباستطاعتي أن أتنسم الكثير من عبير النسائم المحملة بندى الاوراق المطلة على الاسيجة الحجرية وشذى الازهار .

ولكن الساحة المضيئة كانت تجتذب خلجات نفسي بقلقها وحزنها وحتى سخطها . ربما أكون ساخطا في اكثر الاوقات ، ولكن هل استطيع الافلات من أسر آحسه يحيط بي ويشدني بسلاسل وهمية متراكمة من الوجوه نفسها التي كانت السبب في تعاستي وحزني وسخطي ؟ هذا ما يتراءى لي من خلال وجودي في الشارع والمقهى والبيت والمشرب والسينما والتمتع ببعض المباهج الحسية التي أنشدها في التجوال وأخيرا هناك في تلك الساحه ، وفي مدخل ذلك البيت . مرآى الوجوه وهي تتحرك خلف الجدران والابواب والشرفات وألواح الزجاج والممرات يبعث على السأم والمحاصرة والهرب والاحساس باللاعودة ، ذلك الاحساس الكامن في قرارة نفسي . ومع ذلك فأنا مشدود حسيا وعاطفيا لمرآى الكثير من الالوان المتناثرة .. تلك التي في الشارع وفي أصص الطين المفخور وعلى الاسيجة ، وفي ساحات الحدائق ، وقد تستطيع أن تهزأ بكل العواطف الاخرى الا بهذه العاطفة التي تدفع بي الى المواصلة رغم كل المنغصات » .

دخلت حديقة البيت الامامية . بحثت عن صغيري ، شعرت باني في مواجهة خاصة . ولكن انتظاري لم يطل . شاهدته وهو يتقدم نحوي بحذر وحيرة .. حيرته هذه أثارت في نفسي عاصفة من الالم . ما ذنبه يفقد الحنان الحقيقي بجانب أبوين يريان فيه سعادتهما ؟ ما ذنبه حينما يتلفت فلا يجد آلاب ، بل يجد البديل في وجه العجوز الجد الذي يحاول ان يمنحه بعض الاشياء الا الحنان الحقيقي ؟

اقترب مني ، انحنيت امامه ثم ثنيت ساقيّ وجابهته بنفس القامة والطول واحتضنته . لم يتحرك ، ولم يبد على وجهه سوى الحيرة . حاولت التخفيف من حيرته فوضعت بين يديه لعبا كثيرة ، بندقية ، سيارة ، دمية ، لعبا كثيرة ضاحكة تتحرك وترنو الى عالم سعيد غير موجود .

ابتسم بحرارة وراح يعدو والصوت ينطلق من عجلات اللعبة وحركات الايدي والارجل .

قلت له :

ـ ظافر ، أتعرف من أنا ؟

صمت قليلا وابتسم ثم قال :

ـ أنت عمو .

قلت له :

ـ لا يا ظافر .. أنا بابا .

صمت ولم يجب .

أردت أن آخذه بعيدا . كانت الوجوه تحاصر المكان . احسست بذلك آحساسا فقط ، ثم ملأ هذا الاحساس كل وعيي حينما تطلعت الى النوافذ العريضة والزجاج الداكن المفعم بألوان الفروب الشاحبة. لم أجد وجهها ، قلت في سري : يا لها من امرأة داهية !

عبرت الممر وبي نفور من هذا البيت الذي كان سببا في تبديد سعادتي .

« أيام طويلة امتدت الى ستة أشهر كنت خلالها ألتقي بخطيبتي ، أخرج معها الى السينما والمتنزهات ، أحاول ان اتعرف عليها اكثر من خلال اختلاطي . وكنت أمام حالين ، الاول يشمل رغبتي في التجاوز ، والثاني أكيف به نفسي وفق ما طبعت عليه وما اكتسبته . أردت الغاء نفسي ان كان هناك تعارض بيني وبينها وتمييع ذلك الالغاء في بوتقة واحدة . وكنت أبضا وفق سجية طبيعية خالصة . ولكن ظهر بعد ذلك ان الايام الاولى التي مرت لم تكن الا الديكور الخارجي والداخلي لمسرحية كانت بطلتها في غاية الاتقان لدورها ، وحينما انتهى التمثيل باسدال الستارة وخروج الجمهور ظهرت الممثلة الاولى على حقيقتها » .

ـ تعال يا ظافر ، تعال .

التفت اليّ وقال :

ـ أنا ، عمو ؟

ـ أجل أنت يا ظافر .

وقف حائرا ثم ابتعد ..

سمعت صوته في الداخل .

ـ عمو يريدني ..

أشار اليّ :

ـ هذا عمو يريدني ..

عاد . فتحت الباب الحديدي المشبك واحتضنته . رأيت الكثير مثل هذه المشاهد في الافلام .. وفي هذه اللحظة انتابني شعور حاد بأني أمثل دوراً وأتحرك وفق ارادة مخرج ومصور وديكور موضوع بعناية .. ونتيجة لهذا الشعور فقد فترت همتي للحظة وقلت : لا فائدة

من كل ذلك ، لا فائدة يا ظافر .

وللحظات فقط ذابت تلك الاحساسات المرئية والمتخيلة ، ولم يكن امامي سواه واتلعب الصغيرة الملونة التي كانت قربه وكفه الصغيرة تتناولها وتعبث بها بحب ورغبة ، والاحساس العميق من جانبي بالابوة والحنان والمحبة .

« انها لا تريدني ، هذا ما صرحت به امام المحكمة ، وكانت الحكمة التي يرددها الاب هي : سيعود وأنفه في الرغام .

ولكنها حاولت نسف حتى هذا الجسر الذي شيده الاب في مخيلته بأن وقفت امام المحكمة وقالت : لا أريده .. وكنت في طلبي أريد مطاوعتها ، فأخذت به المحكمة ورفضت هي ذلك .

في الحقيقة اعجبت باصرارها وقوة ارادتها بتركها لحقها في النفقة وقلت في سري : لتبق معلقة بين الارض والسماء حيث لا طلان .. وابتدأ ظافر يتنفس الحياة برئة جديدة . وابتدأت المشاهد تمر وتتكرر بشكليات معقدة ، وأغربها هو السماح لي بمشاهدته أسبوعيا » .

كانت اهتماماتي الاولى منصبة على التعريف بشخصيتي .

ـ اسمع يا ظافر . أنا بابا . ذاك الرجل جدو .. هذه اللعب لك فهي هدية مني .

قال ظافر :

ـ أنا ذاهب .. هل أنت ذاهب الى البيت .. هل تريدك أمك ؟

قلت :

ـ أجل يا ظافر .. أمي تريدني مثلك تماما .

سأل مبتهجا :

ـ وهل تنام فوق السطح مثلي ؟

قلت وأنا أهزه بفرح :

ـ أنام فوق السطح وأتنسم الهواء وأشعر بوجودك قربي وبوقع قدميك على السطح تحدثان أصواتا خافتة .. أشعر بدبيب يديك وبحرارة أنفاسك وتقلبك المثير .

« دفعت الباب الحديدي . ألفيت ظافرا في الحديقة . لعله ينتظر ، أبتسم ، ركض تجاهي ، عيناه التصقتا بالكيس الورقي الذي كنت أحمله ، أخرجت له اللعب والهدايا ، أجلسته فوق ركبتي ، نظرت الى كل شيء حولي .. المكان نفسه يحيط بي . الشرفات العالية والستائر من بعيد تبدو جديدة خلف أنواح الزجاج والاشجار التي تقبع وراء السياج ذات الجذوع الخشبية ، ونسمات الهواء التي تهب محملة بندى الحشائش والفروع المتسلقة ، وخلف كل ذلك أحس بتطلع الوجوه في كل مكان ، وجوه متعددة ، مجموعة من العيون المترقبة أحس بها احساسا خلف الستائر الزيتونية الغامقة ، وخلف الجدران الحجرية الصماء ، وخلف جذوع الاشجار ، وبين الاغصان المتشابكة الفروع والحشائش الكثيفة المخضرة .. وخلف الاسيجة الحجرية ، وفي أعين البعض الذين التقي بهم قرب الباب ، وفي عينين جميلتين صغيرتين أهفو اليهما حيث تتميع كل الاحقاد وتتحدر الى مستوى مجاري المياه في سواقي الحديقة المتفجرة بالورود » .

كنت وحيدا مع نفسي وظافر يبتعد ويقترب ، يحدث من الاصوات والجلبة ما يعيدني الى مكاني الحقيقي للحظات ، وثمة شعور بدأ يغزو مكامن حسي ان لا فائدة من كل شيء ، لا فائدة من وجودي قرب الصغير .

المكان موحش كئيب ، ثمة أحزان كثيرة وذكريات استطاعت ان تشدني ، وندم رهيب تحول الى وحش كريه استطاع ان يبعدني ، وبدأت أتقاذف الندم وأتطلع بين الابعاد والشد ، وكنت أحس بضربات عالية كالمطارق تحيط بي وبنفسي يعلو ويهبط وواجهات البيوت تقترب مني والاسيجة الحجرية تحيط بي . وذابت جميع الالوان التي كنت أحتفظ بها في ذاكرتي . صفرة الشمس ، وخضرة الوجود ، وزرقة السماء ، أصبحت لونا واحدا ثم عادت وانتشرت ثم توزعت داخل الكيس الورقي . لقد امتصتها جميع اللعب في الداخل وذابت في ألوانها المتعددة . هل أعود وأترك كل شيء ؟

وبغير وعي تحسست الكتاب داخل جيبي ، ورقة خفيفة . محكمة الاحوال الشخصية . قررنا الزام المدعي عليها بوجوب مشاهدة الطفل لوالده مرة واحدة في الاسبوع .

ليس لي الخيار .. ليس لي الخيار .. يا للبلاهه ! وتراءى لي الجدار نحوه نباتات طبيعية كثيفة . وشاهدت ظافرا يتطلع وقلت :

ـ ربما تنتظرني يا ظافر ... وتنتظر اللعب . ولكن لا فائدة !

حاولت العودة ، قلت في سري مؤكدا : لا فائدة من كل ذلك .

أدرت وجهي ، شاهدت الشارع طويلا ممتدا الى نهاية عميقة .. مسحت العرق عن وجهي ، تطلعت الى الكيس الورقي الاسمر وابتدأت أضع قدما جديدة في طريق العودة .. سمعت وقع أقدام خلفي ، اقدام خافتة ذات صوت هادىء متسارع كأنه همهمة انسان لاهث متعب .

ـ عمو .. عمو .

رأيت ظافرا يتخطى سياج الحديقة ويتوسط الشارع .

قلت بحرارة :

ـ لا يا ظافر ، أنا بابا .. بابا .

هنا سيكون لقاؤنا في هذا الشارع الطويل الممتد شريطه الازرق الى نهاية العالم ، حيث لا وجود لحواجز بشرية ولا عيون حاقدة ولا زجاج أو ستائر داكنة مانعة لحركة الانسان ، لا تغيير في ابسط المفاهيم .

انحنيت عليه وأخرجت اللعب الملونة من الكيس وأدرت مفتاح واحدة منها .

دارت اللعبة ـ انسان بملابس المهرجين يمتطي دراجة ذات عجلة واحدة ويفتح يديه بموازنة سريعة مضحكة محاولة منه في التشبث بالبقاء على حافة من القلق ـ على الارض المنبسطة الزرقاء دورة كاملة ، تتبعها وجه ظافر باهتمام ثم تحرك نحوها وقبض على عنق المهرج ورفعها عن الارض .

بقيت العجلة دائرة والصوت يخبو بتقطع .

ابتسم ظافر ثم ضحك وعاد مسرعا وبقيت خلفه .

ـ ظافر .. ظافر . انا بابا ، بابا .. مو عمو .

هنا سيكون موعدنا في الاسبوع القادم .. انه الزام كما تعرف .. ها .

بغداد — خضير عبد الامير

في الاسواق

قالت لي مرة :

أنا خائنة في حقيقتي ، لا أحب إلا بعيني ، الوجه القريد الذي يلمع بوجهي يكون وليمتي لتلك الليلة. ضحكت بوجه دو أن أظن يوما ستمسني كلماتها ... ثم سألتها « إذا رفضت قالت « رجل هذه المدينة مفاتيحه سهلة ومكشوفة ... » فإنه لا يعرف أن يرفض المرأة

رواية نحن سمارة صيداوي

منشورات زهير بعلبكي